عمر بن الخطاب*

للأستاذ علي الطنطاوي

« أهدي هذا الفصل إلى ... ... صاحب (الرسالة) ، اعترافاً بفضله وفضل رسالته علي ، فانه لولا التشجيع الذي تفضل علي به يوم صدر كتابي (أبو بكر الصديق) لم يؤلف هذا الكتاب »

« علي »

— ١ —

... في يوم وَهِج من أيام الصيف ، قد خَدِر واشتدّ حرّه ، في الهاجرة الملتهبة ، كان يسير على رَمْضاء مكّة — وقد تسعّرت الأرض وتوقدت ، واستحالت جمرة مشتعلة — رجلٌ ضَخم الجثّة مُفرط الطول ، شديد الأَسْر ، قد توشح سيفه ، وأقبل مسرعاً يطأ الأرض وطأ عنيفاً ، فتحسّ كأنّ قد تقلقلت تحت أقدامه ، ويرمي كل شيء حوله بنظرات حادّة ينبعث منها الغضب ، ويتطاير منها الشَّرَر ، لا يبالي الشّمس المتّقدة ، ولا الحصى المتسعّرة ، ولا يحفِل السّموم الذي هبّ سخناً يلفح الوجوه ، كأنه فيح جهنم ... لأنّ له غاية فهو يسعى إليها ، إنه يريد أن يقتل «سيّد العالم» !

ذاك هو «عمر» الجاهليّة ... رجل يعيش في الظلام ، وراء سور التاريخ ، لم يَدْنُ منه ، ولم يلجْ حماه ، ولم يُلْقَ عليه نوره ؛ رجل يمشي في هذه القافلة الجاهليّة ، التي تبدأ من وسط الرمال ، في قلب الصحراء ، ثم تسير على الرمال ، رمال الصحراء ، ثم تنتهي في الرمال ، في الصحراء ... تبدأ من العدم ، وتنتهي إلى العدم ، قبل أن تبلغ أرض المدنيّة ، أو تصل إلى حدود العمران ، أو تدنو من مهاد العلم والحضارة والحياة ...

رجل يعيش بغير اسم ، ويموت بلا ذكر !

— ٢ —

قف أيها الرّجل ! تودع من جاهليتك ، إنّ عرشك في التاريخ قد أُعِدّ لك لتستوي عليه ، إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) سيضع في يدك المفتاح الذي يفتح لك أبواب (التاريخ) الذي جهلك وأنكرك ، ولم يَدْرِ بك ... لتدخل حرمه ، ثم تعلو في مراقيه ، ثم توغل في ساحاته وأبهائه ، حتى تصل إلى السدّة العليا ، فتجلس عليها ، دون الأنبياء وفوق العظماء [1] !

قف أيها الرجل ! ألْقِ عنك هذا السلاح الذي جئت تحارب به دين الله : إنّ دين الله لا يحارب !

إرم هذا السيف الذي توشحته لتقتل محمداً ، وتقضي على بدعته الجديدة ، وتبيد أصحابه التسعة والثلاثين ! إن محمداً رسول الله وسيّد كل من قال : أنا إنسان ، لن يقتل ! إن هذه البدعة التي كتب لها أن تغلب على العالم ، وتبقى ما بقي الزمان ظافرة منصورة لن يقضى عليها . إن هؤلاء التسعة والثلاثين رجلاً سيملكون الدنيا ؛ سيصيرون أربعين ألفاً ، أربعين ألف ألف ، أربعمائة ألف ألف ، سيصيرون هم سكان هذه الكرة ... إنهم لن يبيدهم سيفُك يا عمر !

بل سيعزّهم الله بك ، ويستجيب فيك دعاء نبيّه ومصطفاه ، صلى الله عليه وسلم ... فتعال ! اغمد هذا السيف . اقبض هذه اليد التي رفعتها لتضرب بها امرأة . تعال اغتسل من شِركك وجهالتك وجفائك وقسوتك . إنك ستمشي إلى مشرق النور ، إلى دار الأرقم في أصل الصفا ، فتشهد فيها أنه لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله !

* * *

يا لسرّ الكلمة السماوية : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله !

لقد نقلت عمر من ظلمة الجاهلية إلى نور الاسلام ، ومن حضيض الخمول إلى قُنّة المجد ، ومن مهامِه النسيان إلى صدر التاريخ .. لقد ذهب عمر الفظّ القاسي الذي كان مطية لقريش في ظلمها وشركها وجبروتها الزائف ، فينصر الباطل على الحقّ ، والشرك على التوحيد ، وجاء الفاروق العادل الرؤوف الرحيم ، البطل الخالد العظيم ، العبقريّ الذي أدار أربع ممالك ، لقد جاء أمير المؤمنين ، سيف الأسلام وعزّ الدين !

يا للعجب العجاب ! إن الرجل الذي خرج في الهاجرة المحرقة ، في هذا اليوم العصيب ، منتضياً سيفه ، لا يلوي على

(*) من (الفصل الختامي) لكتاب (عمر بن الخطاب — تأليف علي الطنطاوي وأخيه ناجي الطنطاوي) — تحت الطبع — تصدره قريباً (المكتبة العربية بدمشق) في أكثر من (٦٠٠) صفحة

(١) حاشا أبا بكر أعظم العظماء بعد الأنبياء

شيء حتى يقتل محمداً ، قد رجع وهو يحب محمداً (صلى الله عليه وسلم) أكثر من أمّه وأبيه والناس أجمعين !

إنها قد تعرض للمرء لحظات تبدل مجرى حياته ، ولكنا لا نعرف — ولا يكاد يعرف أحد — مثل هذه اللحظة المباركة ، التي قلبت هذا الرجل قلباً ، فارتقى مرّة واحدة من بدوىّ منكر لا يعرفه إلا قومه ، إلى عبقرىّ سيعرفه التاريخ بأنه قاهر كسرى وقيصر وباني الكوفة والبصرة ، وأنه أقوى وأرق وأعقل وأعدل ملوك الزمان — هذه اللحظة التي أثرت في حياة العالم فأزاحت دُولاً وأقامت دولاً ، وثلت عروشاً ، وبَنت حضارات

* * *

أسلم الفاروق ، فليفرق بين الحق والباطل ، ولينتقل الاسلام من دين مستتر يفرّ من قريش العاتية الظالمة المستكبرة ، مختبئ في حاشية من حواشي مكة التي يصول فيها الشرك ويجول ، وتقوم حول كعبتها الأصنام ، إلى دين ظاهر مجاهد ، يجابه الخصوم ، ويصمد للأعداء . لقد كان الاسلام ساكناً تحت الصفا يعمل بهدوء ، ويتكامل في الخفاء ، كما تتكامل البذرة في باطن الأرض ؛ فَلْيَخْرج القصن ولينمُ في الهواء ، ولْيسمُ إلى العلاء ، ليكون منه بعد ثلاثين سنة الدوحة التي تمتد فروعها من صحراء افريقيا إلى سهول خُراسان ، ومن جبال الأناضول ، إلى ساحل عُمان ...

ليعلن الاسلام (بمظاهرة) تسير في شوارع مكة على رأسها « حمزة » أسد الله و « عمر » الفاروق حتى تنتهي إلى المسجد الحرام ، فيصلي المسلمون عند الكعبة أول صلاة بجماعة ، وإمامهم إمام الأنبياء وسيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) ، ولتتقطع أفئدة قريش من الحنق ، وليموتوا بغيظهم . انهم لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً . لقد أسلم الفاروق ، وفرق الله به بين الحق والباطل ! إنها (مظاهرة) صغيرة ، لم يسر فيها الا أربعون رجلاً ، ولكنّ هؤلاء الأربعين هم الذين صنعوا الأربعمائة مليون مسلمي اليوم ، ولا يعلم إلا الله ماذا يصنعون غدا ... ولكن فيهم حمزة ، فيهم عمر العظيم ، فيهم خلاصة الانسانية ، وأفضل الانس والجنّ والملائكة ، محمد رسول الله !

إن هذه (المظاهرة) التي سار فيها أربعون شخصاً مائتي خطوة ، من الصفا الى الكعبة ، لهي أعظم (مظاهرة) عرفها التاريخ لأعظم مبدأ قام لتقرير التوحيد ، وتأييد الحق ونصرة الفضيلة ، وتحقيق المثل العليا في الحق والخير والجمال

انها تسير أبدا ، تسير في الأدمغة والقلوب ، ما بقيت أدمغة وقلوب يحفّ بها الاجلال والاكبار

— ٣ —

ولكن ماذا كان عمر لولا الاسلام ؟ هل كانت هذه العبقرية النادرة ، وهذه النفس العجيبة التي تظهر لو لم يلمسها (محمد) بيده الكريمة ويهزها ويُفيضْ عليها من نوره ؟

هل كان لعمر هذه المكانة في التاريخ وهذه المنزلة في النفوس ؟ هل كان يعيش الى هذا العصر ويؤلف فيه عشرون كتاباً ، ويبقى الى العصر الآتي ويكتب فيه ألف كتاب ؟

إن من يدقق في سيرة عمر ، ويقابل بين عمر الجاهلية — على قلّة ما لدينا من أخباره — وعمر الاسلام ، ويرى كيف استحال عمر من شخص إلى شخص ، وتبدلت طبائعه وأفكاره في اللحظة التي وقف فيها أمام النبي صلى الله عليه وسلم ونطق بكلمة الشهادة وكيف ولد في تلك اللحظة ولادة جديدة وبدأ يصعد في مدارج العلاء ... إلى ذروة المجد ... إلى الجنّة ، علم أن عمر مدين للاسلام بكل شيء

نعم ، قد تظهر هذه العبقرية ولو لم يتداركها الاسلام ، وتبدو آثارها ، ويصبح عمر زعيما من زعماء مكة ، يبرز ويعظم أثره في قريش ، ثم لا يتجاوز اسمه هذا الوادي الذي يمتد ستة أكيال من جرول إلى الحجون ، بعرض كيلين اثنين — أما أن يتخطى أثره الأخشبين إلى البادية ، ويقطع البادية إلى الشام والعراق ، وينفذ إلى الأجيال الآتية فشيء لم يكن لينالله عمر لولا الاسلام

وماذا كانت تصنع هذه العبقرية وهي محصورة في هذا الأفق الضيّق ؟ وما كان يصنع عمر وهو يعيش في بلدة منقطعة عن العالم تائهة في لجّ من الرمال ما له آخر لا صلة لها بالبلدان العامرة إلا صلة التجارة الضعيفة ، ولا تأتيها أخبار العالم إلا رثة بالية ، ولا نبأ عندها من فلسفة يونان ، أو حكمة الهند ، أو أخبار

السياسة الدَّوْلية بين فارس والروم ؟

هل ينير مصباح محبوسٌ فى صندوق مغلق ؟ أم يشتعل وحده لايدرى به أحد ، ثم يفنى زيته ، فينطفئ وحده لايعلم به إنسان ؟

أما كانت تمضى عبقرية عمر كما مضت ألوف من العبقريات دفنت حيّة فى بقعة معتزلة من بقاع الأرض ، فى قوم متأخرين ، ولم تتصل بسمع التاريخ ؟

أما إن عمر شعاعة من نور الاسلام ، ومعجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم !

— ٤ —

لما استفاق بنو قريش من الغشية التى أصابتهم عند ما أسلم عمر عادوا يكيدون للدين ، ويؤذون النبيّ والمسلمين ، والنبى (صلى عليه وسلم) ماضٍ فى دعوتهم ، صابر على أذاهم ، ينذرهم بطش الله ، ويعدهم إذا هم أسلموا ملك فارس والروم ، ويعدهم جنة عرضها السموات والأرض ، وهم ماضون فى إعراضهم ، لا يتدبرون القرآن ، ولا تخشع له قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة (وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهارُ ، وإِنَّ منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخرُجُ مِنْهُ المَاء ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهبطُ مِنْ خَشْيَةِ الله) يا لهذه القلوب التى هى أغلظ من الجبال ! (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) . وهذه القلوب التى أنزل عليها القرآن لا تخشع ولا تلين !

طلعت الشمس على وادى مكة أربعة آلاف وأربعمائة وأربعا وعشرين مرّة [1] والمشهد واحد لم يتغير

نبيّ الله يدعو الناس إلى الله ، سراً وعلناً ، فرادى وجماً ، ليلاً ونهاراً ؛ وبنو قريش يناوئونه ويحاربونه ويؤذونه ، يلقون الشوك فى طريقه وهو ماشٍ ، ويرمون سلى الجزور على رأسه وهو ساجد ، ويُغرون به سفهاءهم وأحداثهم ، ويفتنّون فى تعذيب المسلمين ، ويخرق لهم أدمغتهم الشيطانية طرقاً فى التعذيب تقشعر لهولها الأبدان [2] ، ويقاطعون المسلمين لا يكلمونهم ولا يبايعونهم ولا يزوجونهم ، ويحصرونهم فى الشِّعب سنتين ، ثم يعدّون عدد الجريمة الكبرى ، يأتمرون بالنبى ليقتلوه ، ويضيّعوا دمه فى القبائل ، فلا يقدر عليه بنو عبد مناف

فختام الصبر على هذا ؟ أيقف هؤلاء المشركون الجاهلون من رؤوس قريش وزعماء مكة فى وجه الاسلام ، الذى ما جاء لقريش ولا للعرب ، ولا للقرن السابع الميلادى ، ولكن جاء رحمة للعالمين ، وهدى للناس أجمعين ، فى كل عصر وفى كل بادية ومصر ؟ أهؤلاء يمحون الاسلام من الأرض محواً ؟ يا للسخفاء المغرورين ! (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) وينصر نبيه ، ويظهر دينه (عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

لم يعد فى قوس الصبر مَنزَع ، فليسر الاسلام فى طريقه — نحو أرض الشام — نحو الظلال والأعناب ، فليستقر فى الطريق ، (فى المدينة) حيناً ، ثم ليخرج من يثرب ، ليعم العالمين

أيها المسلمون ... هاجروا إلى المدينة !

***

أذن النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، فخرجوا أرسالاً مستخفين مستترين ، يتسلّلون من مكة انسلالاً ، فلا تدرى بهم قريش ، إلا وهم فى المدينة على رأس الجيش الذى يسحق رؤوس الكفر فى (بدر) ، ثم يمضى إلى (فتح مكة)

لكن عمر ؟ عمر القويّ الذى ما لان للمشركين ؛ عمر الذى أعلن إسلامه وذهب يضرب المشركين ويضربونه ، ويجد فى ذلك لذة وراحة ؛ عمر الذى تحماه خاله أبو جهل ، وأجاره من أذى قريش ، فضرب وجهه بجواره وأباه ، وعاد إلى قريش يَضرب ويُضرب ، ثم لا يكون إلا غالباً ، يدفع عن نفسه ، وعن المستضعفين من المسلمين

عمر يذهب من مكة مستخفياً ؟ معاذ الله يا عمر !

تهيأ عمر للهجرة ، فتقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى بيده أسهما ، واختصر عنزته [1] وذهب إلى المسجد ، فاستقبل قريشاً بالسلاح الكامل ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الملأ من قريش ، فأعلن وحده الحرب عليهم جميعا .... فقال :

« شاهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد

(١) من يوم الاثنين ٦ أغسطس ٦١٠ إلى يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ (أى من البعثة إلى الهجرة)

(٢) لكنها لم تكن تعد شيئاً فيما ابتكره ديوان التفتيش فى أسبانيا لتعذيب المسلمين من طرق لم تخطر على بال ابليس نفسه ...

(١) عصا فى رأسها زج ، كالرمح الصغير

أن يُثكل أمّه ؟ أو يوتم ولده ، أو يُرمل زوجتَه ، فليلقني وراء هذا الوادي ! »

قال علي رضي الله عنه : فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين ، علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه

— ٥ —

سيقول قائل : ما لعمر يعلن هجرته ، ويمشي على رؤوس الأشهاد من صناديد قريش ، والنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه يهاجران مستخفيين ؟ أيكون عمر أشجع من النبي ومن أبي بكر ؟

لا والله ، ما هو بأشجع منهما ، ولقد وقف عمر بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعد لم يسلم ، ولم يجيء إلا ليقتله ، فلما أمسك بتلابيبه ونثره ، سقط على الأرض ، على قدم النبي ، وهو يرتعد من هيبته صلى الله عليه وسلم . وكان الصحابة — وفيهم عمر — إذا جد الجد ، وحمي الوطيس ، ودارت رحى الحرب ، استتروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واحتموا به . ولما كانت الردة ورمت العرب عن قوس واحدة ، وخاف الصحابة وخاف عمر ، وأرادوا المسالمة والملاينة ، قام أبو بكر وحده في وجه العالم وسارعه حتى صرعه . فكان عمر يعرفها له أبداً ... فعلام إذن هاجر عمر جهاراً نهاراً ؛ وهاجرا مستخفيين ؟

إن في الأمر لسراً ، هو غير الشجاعة والجبن ، ذلك أن القائد العام عند ما ينتقل من جبهة من جبهات الحرب الى جبهة أخرى ، لا يقف في الطريق على عدو ، ولا يلقى حرباً ، وإذا رأى نفراً من الأعداء ، يستتر منهم ، ويتأى عنهم ، لأنه إذا سلك سبيل الشجاعة الساذجة ، وأقبل عليهم يقاتلهم ، ضيع الجيش الذي ينتظره ، ولا يعمل إلا به ، وخسر المعركة الكبرى لينتصر على نفر من الأعداء في معركة على الهامش ، ثم إن فراره لا يعد جبناً ولا عجزاً ، وإقدامه لا يعد شجاعة ولا استبسالا

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم القائد الأكبر ، لا في حرب قريش أو هوازن — فما قريش ؟ وما هوازن ؟ ولكن في حرب الشرك والجهل والظلم ، في الحروب التي تمتد أبدا بين الحق والباطل ، فلا يدافع عن الحق قوم إلا كانوا تحت راية محمد ، فهل يدع مهمته الكبرى ، لينتشر على نفر من قريش ؟

ذلك هو سرّ الهجرة

(لم ينته الفصل)

علي الطنطاوي

٢ ـ جامعة الاسكندرية*

بقلم الأديب ابراهيم جمعة

علماء الجامعة في عصرها الأول — فيلتاس القوصي — زنودوتس — زيارة ميناندر الأثيني وافتتاح مسرح الاسكندرية — اكتشاف فيلون للبحر الأبيض الجنوبي — دراسة مانيتو وتيموثيوس وهيكاتاس للعقائد المصرية القديمة — اقليدس وهيرونيلوس — سوتر يكلف بالدراسة والتصنيف آخر الأمر — قيمة كتاباته — الفن — أخذ الايطاليين عن الاسكندريين

يميل الباحثون الألمان إلى نسبة هذه الجمهرة من العلماء إلى بطليموس الأول المعروف باسم بطليموس سوتر ، وهو الذي يعتبره « سسميل » صاحب الفضل الأوفى في خلق حركة فكرية أدبية علمية في الاسكندرية قام هو بحمايتها ، وترأس مجالسها ، وأصغى إلى المناقشات الشديدة الاحتدام التي خاض في بعض الأحايين من الفائدة العلمية ، فأصبحت جدلاً شخصيا لاطائل تحته

عهد بطليموس سوتر بتربية ابنه « فيلادلف » إلى عالم ذاع صيته في ذلك العصر هو فيلتاس القوصي ، وهو شاعر ينسب إليه أول مجهود أدبي عرفته الاسكندرية في الشعر الرثائي ، بل أول مجهود عرفه العالم أجمع من هذا النوع من الشعر ، وهو الى هذا من أشهر علماء اللغة الاغريقية الذين صنفوا فيها ، ووضعوا لها موسوعة كبرى حوت كل مصطلحاتها

هذا وقد تابع زنودوتس البيزنطي التأليف والتصنيف في قواعد الاغريقية ، وقام بجهد يشكر في مراجعة مخلفات « هوميروس »

ويحتمل أن يكون بطليموس سوتر هو المؤسس لمسرح الاسكندرية ، وأن تكون دعوته « لميناندر الأثيني » بقصد حضور حفلة افتتاح المسرح الكبير وشهود بعض رواياته التي وضعها في أثينا تمثل في الاسكندرية ؛ وقد كانت زيارة ميناندر للاسكندرية تطويقاً لجيد الجامعة بأثمن درر العصر ، واعترافاً بالمكانة الناشئة والنجاح الظاهر الذي صحب جهود البطالسة الأوائل في توفير جو علمي من الطراز الأول لمدينتهم الجديدة

ووكل سوتر إلى أمير البحر « فيلون » أمر التجوال في البحر الأحمر قصد الوصول إلى أطرافه الجنوبية ؛ وقد وفق هذا إلى اكتشاف البحر الأحمر الجنوبي ، وكان لهذا الاكتشاف أثره في عصر بطليموس فيلادلف ومن خلفه في التجارة وفي تزويد

(*) انظر العدد ١٦١ من الرسالة